

الفصل الثالث

التنظيمات المالية والإدارية للمدارس في القاهرة وحلب في العصر الأيوبي

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

رغم كثرة المدارس في العصر الأيوبي في مدينتي القاهرة وحلب، فإنه لم يكن هنالك إشارات واضحة في المصادر التاريخية تعطينا معلومات حول فيما إذا كان للدولة الأيوبية سياسة معينة في إنشاء المدارس، ولكن وثائق وحجج الوقف والحبس التي أوقفت أو حبست على هذه المدارس كانت بمثابة القانون الناظم لهذه المؤسسات التعليمية سواء في المدارس أو غيرها من المنشآت الوقفية، وكانت حجة الوقف بمثابة القانون الداخلي للمدرسة فهو ينظم أمور هذه المنشأة من خلال الشروط التي كان يوقف المنشأة على أساسها فكانت الشروط الواجب توافرها في المدرس و المعيد وكذلك طبيعة المذهب الذي يدرس بها، وعدد الطلبة والموظفين الإداريين داخل هذه المدرسة، ولم تكن الدولة تعارض ذلك ما دام يتفق مع السياسة العامة للدولة ويمكن تقسيم المدارس إلى مدارس الحكام و السلاطين، ومدارس الأمراء والأميرات، ومدارس الفقهاء والعلماء، ومدارس التجار، ومدارس العامة. لكن سوف نتحدث عنها على أساس قسمين رئيسيين هما المدارس السلطانية، والمدارس غير السلطانية وسوف نتحدث عنها كلا على حدا:

أولاً: تقسيم المدارس

1- المدارس السلطانية:

هي المدارس التي أنشأها سلاطين البيت الأيوبي وكان أول ما يميزها عن غيرها هو أن أماكن إنشائها كان مختاراً بعناية⁽¹⁾ وكان موقعها أما بجوار جامع له من الشهرة والمكانة الواسعة مثل جامع عمرو بن العاص، أو بجوار أحد المشاهد الدينية العامة مثل قبر الإمام الشافعي و المشهد الحسيني، وإما أن تكون جملة من بناء قديم مثل القصور الفاطمية بالقاهرة. أو في أماكن عامة في سوق أو غير ذلك، وهذا يضمن لها البقاء والاستمرار، وتميزت هذه

1- المقرئزي ، الخطط ، ج4 ، ص 194 ومابعدھا ؛ أحمد فؤاد سيد، نظم الحكم والإدارة في العصر الأيوبي بمصر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1983م، ص281.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

المدارس أيضا باتساع وعظمة بنائها هذا راجع إلى الأموال التي كانت تصرف على هذه المدارس⁽¹⁾.

يصف لنا ابن جبير (ت 614هـ/1217م) المدرسة الناصرية التي بجانب ضريح الإمام الشافعي " وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، ولا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته.....والنفقة عليها لا تحصى تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشاني وسلطان هذه الجهات صلاح الدين الأيوبي يسمح له بذلك كله، ويقول زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله"⁽²⁾ وهذا ما لاحظناه أيضا في المدرسة الظاهرية في حلب فقد كانت أبوابها فخمة ومزينة بالمقرنصات ولها ثلاث قباب وكانت فخمة البناء⁽³⁾، وتميزت كذلك بكثرة أوقافها وغناها فمثلا المدرسة القمحية التي أوقف عليها صلاح الدين ضيعة بالفيوم وكذلك المدرسة الكاملية والصالحية اللتان تميزتا بكثرة أوقافهما وغناهما وهذا أيضا ما نلاحظه في مدارس حلب مثل مدرسة الفردوس والظاهرية البرانية والجوانية وغيرها كثير⁽⁴⁾، ولكن هناك سؤال هل هذه المدارس كانت تبنى على نفقة الدولة أي من بيت المال أم من أموال السلاطين الخاصة ؟

من المرجح أن هذه المدارس كانت من أموال بيت المال وذلك من خلال بعض الأحداث و الإشارات فمثلا صلاح الدين بنى مدرستين وهو مازال وزيرا في الدولة

1- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص132-133.

2- الرحلة ، ص22-23.

3- عبد القادر الريحاوي، العمارة الإسلامية، ص139.

4- تحدثنا عن هذه المدارس بالفصل الأول ، المدرسة الظاهرية البرانية والجوانية بطلب أنشأها الملك الظاهر ، ومدرسة الفردوس أنشأتها ضيفة خاتون ، والمدرسة الكاملية أنشأها الملك الكامل الأيوبي ، والمدرسة الصالحية أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

الفاطمية وكان موقعها سجنا للمعونة وهي الناصرية الأولى، والأخرى دار الغزل فحولها صلاح الدين إلى مدرستين، وكذلك المدرسة الكاملية والصالحية⁽¹⁾، وحتى في حلب كانت بعض المدارس تبنى على نفقة بيت المال ربما راجع ذلك لعدم وجود فصل واضح بين ما يملك السلطان و بيت المال فهو الذي كان يقطع الإقطاعيات لأمرائه وأقاربه وهو الوحيد الذي كان يتصرف في بيت المال.

2- المدارس غير السلطانية؛

بنيت هذه المدارس من قبل الأمراء والعلماء والتجار والعامّة. وجاءت هذه المدارس أقل اتساعا من المدارس السلطانية لأن إمكانيات الأفراد لم تكن مثل إمكانيات السلاطين ، ويمكن استثناء مدارس الأمراء والأميرات من ذلك لأنها كانت تقارب المدارس السلطانية في اتساعها وبنائها لأن السلاطين أغدقوا على أمرائهم في الإقطاعيات والثروة، فأنشئوا المدارس من ثرواتهم الخاصة وأوقفوا عليها الأوقاف مما جعلها لا تقل أهمية وعظمة عن المدارس السلطانية، مثل المدرسة التقوية التي أنشأها تقي الدين عمر وكذلك المدرسة السيفية والشريفية والفخرية⁽²⁾، والفائزية التي ذكر ابن العميد⁽³⁾ (ت 672هـ/1273م) عن مؤسسها الأسعد شرف الدين الفائزي⁽⁴⁾ أنه كان له أموالا كثيرة عمر مدارس ومساجد وأوقف عليها

1- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص134.

2- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص157 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص135.

3- أخبار الأيوبيين ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د. ت، ص44.

4- أحد أمراء الدولة الأيوبية كان في أول أمره نصرانيا من مدينة أسيوط قدم القاهرة و أسلم في أيام الملك الكامل وخدم عند الملك الفائز ابراهيم عبد الملك العادل فنسب إليه وظل من يومها ينتقل بين المناصب الكبرى بالدولة الأيوبية مقدما عند الخاصة والعامّة إلى أن قتل سنة 655هـ/1257م.) المقريزي، الخطط، ج2، ص90).

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

الأوقاف الكثيرة وعمر رباعا وأماكن كبيرة ، وفي حلب قام الأمراء بنفس الشيء مثل المدرسة الشاذبختية والسيفية والحسامية وغيرها. أما بقية المدارس فلم تكن بإمكانات مدارس السلاطين والأمراء ولكن موقفيها بذلوا الشيء الكثير لذلك ومثال ذلك المدرسة المسروورية ومدرسة ابن رشيق والصيرمية وغيرها في القاهرة والمدرسة الرواحية والبدرية والصاحبية في حلب⁽¹⁾.

يمكن القول بأن المدارس السلطانية تمتعت بإمكانات جعلتها أكثر غنى في البناء والأوقاف عنها في المدارس غير السلطانية ، وكذلك في الاتساع فقد كانت المدارس السلطانية أكثر اتساعا من المدارس غير السلطانية ، وربما راجع ذلك إن الدولة وضعت يدها على المباني العامة التي كانت للدول التي قبلها واعتبرتها ملكا للدولة فشيدت عليها المدارس والمساجد بينما كان أصحاب المدارس غير السلطانية لا يملكون العقارات الواسعة ، وإنما قاموا ببناء المدارس حسب طاقاتهم فمنهم من حاكى المدارس السلطانية وقلنا إن هذا ينطبق على الأمراء بينما باقي الطوائف فقد بنوا المدارس في عقارات أقل مساحة وبعضهم أوقفوا بيوتهم وعملوا منها مدرسة أضف ذلك أنهم قلدوا الخاصة. والجدولان التاليان يوضحان عدد مدارس الحكام والأمراء والقضاة والفقهاء والتجار والخدم.

1- سبق التعريف بهذه المدارس بشكل مفصل في الفصل الأول من هذا الكتاب .

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

جدول توضيحي لمدارس حلب في العصر الأيوبي رقم (1)

الاسم المدرسة	مكان وتاريخ الوقف أو الإنشاء	سلطان	أمير أو وزير	قضاة	فقيه أو عالم	تجار	خادم أو عتيق	المذهب
الصاحبية	بهاء الدين ابن شداد 601هـ/1204م السفاحية قرب جامع الموازيني			=				شافعية
الهروية	الظاهر غازي 603هـ/1206م جنوبي محلة الفردوس	=						شافعية
الظاهرية البرانية	الملك الظاهر غازي 610هـ/1213م خارج باب المقام	=						شافعية
الرواحية	محمد بن راحة 622هـ/1225م أول زقاق الزهراوي					=		شافعية
الشرقية	شرف الدين عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي 640هـ/1241م شرقي الجامع الأموي الكبير				=			شافعية
البدرية	بدر الدين عتيق عماد الدين شادي بن صلاح الدين ؟ رأس زقاق الزهراوي						=	شافعية
الزيدية الالوحية	ابراهيم ، عرف بابن زيد الكيال الحلبي 655هـ/1257م داخل باب إنطاكية				=			شافعية
الفردوس	ضيعة خاتون 633هـ/1235م خارج	=						شافعية

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

							باب المقام	
شافعية					=		حسام الدين بلدق عتيق الظاهر 635هـ/1237م الحاضر قرب الكلاسين	البلدقية
شافعية					=		حسام الدين القيمري 646هـ/1248م ظاهر حلب جوار المقام	القيمرية
شافعية							مجهولة كتب على بابها 604هـ/1197م الدحيلة	الأنصارية
حنفية					=		شاذ بخت الآتابك الهندي عتيق الملك نور الدين الزنكي 589هـ/1193م حي الجلوم وسط سوق الزرب	الشاذبية تية الجوانية
=					=		عبد الله غزل شهاب الدين الآتابك 620هـ/1223م محلة باب الحديد	الآتابكية الجوانية
=					=		عز الدين جردك النوري 590هـ/1193م سوق البلاط	الجرذكية
=					=		حسام الدين سمان النوري ؟ باب قنسرين بجانب جامع الرومي	الطمانية
=					=		حسام الدين محمود جد ابن الشحنة 615 أو 6625هـ/1218 أو 1227م غربي القلعة	الحسامية

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

=	=						بدر الدين عتيق أسد الدين شيركوه 623هـ/1234م مقابل القلعة	الأسدية
=					=		محمد بن قليج النوري 650هـ/1252م ملاصقة لدار العدل	القليجية
=					=		مسعود بن عز الدين أيبك (فطيس) 649هـ/1251م غربي دار العدل	الفطيسية
=					=		شاذ بخت الآتابك الهندي عتيق الملك نور الدين الزنكي 589هـ/1193م ظاهر حلب شماليتها	الشاذبية البرانية
=					=		سيف الدين علي بن علم الدين بن جندر 598هـ/1201م خارج باب قنسرين	السيفية
=					=		حسام الدين بلدق عتيق الظاهر 635هـ/1237م الحاضر ظاهر حلب	البلدقية
=				=			الشريف النقيب عز الدين المرتضى بن أحمد الاسحاقي ؟ جبل جوشن	النقيب
=							علي بن دقاق 622هـ/1225م أو 630هـ/1232م شمال الفيض	الدقاقية
=					=		إقبال الظاهري 641هـ/1243م خارج باب المقام	الجمالية
=					=		علي بن أبي الرجاء شاد ديوان الملكة	العلانية

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

							ضيقة 633هـ/1235م خارج الكلاسة	
=				=			مؤرخ حلب كمال الدين ابن العديم 637هـ/1241م شرقي حلب	الكمالية العليمية
=					=		شهاب الدين غربك الظاهري 620هـ/1223م داخل باب بانقوسا	الأتابية البرانية
شافعية ومالكية				=			شمس الدين أبو بكر أحمد بن العجمي 595هـ/1198م داخل باب الحديد	مدرسة الجبيل
شافعية وحنفية					=		سيف الدين علي بن جندر 617هـ/1220م غربي خندق القلعة	السيفية
شافعية وحنفية						=	الملك الظاهر غازي 613هـ/1216م تحت القلعة	السلطانية
مالكية وحنبلية					=		سيف الدين علي بن جندر ؟ تحت القلعة	السيفية
مجهولة المذهب						=	مجهول ، بين 627-634هـ/1229- 1236م خارج باب المقام	الكمالية
=							؟ لم تذكر سوى عند هرتزفيلد 654هـ/1256م في باب قنسرين أمام الأسدية	الكريمية

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

جدول توضيحي لمدارس القاهرة في العصر الأيوبي رقم (2)

اسم المدرسة	مكان وتاريخ الوقف أو الإنشاء	سلطان	أمير أو وزير	قضاة	فقيه أو عالم	تجار	خادم أو عتيق	المذهب
الناصرية الأولى "بابن زين التجار"	السلطان صلاح الدين الأيوبي 566هـ/ بجوار الجامع العتيق مدينة الفسطاط	=						شافعية
الناصرية الثانية	السلطان صلاح الدين 572هـ/1176م بالقرافة بجوار قبة الإمام الشافعي	=						شافعية
القطبية	قطب الدين خسرو بن شجاع الهدباني 570هـ/1174-1175م في خط سوقة الصاحب بداخل درب الحريري	=						شافعية
مدرسة ابن الأرسوفي	عفيف الدين عبد الله بن محمد الأرسوفي 570هـ/1175م تقع بالبزازين					=		شافعية
التقوية	تقي الدين عمر أنشأت قبل سنة 571هـ/1175م على شاطئ النيل بمنازل العز الفاحمية		=					شافعية
المشهد الحسيني	السلطان صلاح الدين الأيوبي ؟ بجانب قبر الحسين بن علي	=						شافعية

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

شافعية					=	سيف الإسلام غفكين بن أيوب أخو صلاح الدين 593هـ/1197م بين خط البندقانيين وخط الملقين	السيفية
شافعية					=	الشريف فخر الدين بن ثعلب الزيني 612هـ/1215م بدرب كركامة على راس حارة الجودرية	مدرسة الشريف فخر الدين بن ثعلب
شافعية					=	السلطان الكامل بن العادل الأيوبي 622هـ/1225م تقع بين القصرين الغربي والشرقي الفاهمين	الكاملية
حنفية					=	السلطان صلاح الدين الأيوبي 572هـ/1176م من جملة دار الوزير مأمون البطانحي	السيوفية
حنفية					=	سيف الدين ايازكوج الاسدي 592هـ/1196م على رأس سوقة أمير الجيش	الأنكشية
حنفية					=	حسام الدين قايمار النجمي ؟ سوقة أمير الجيش	الغزنوية
=					=	الست عاشور بنت ساروخ الاسدي ؟ تقع بحارة زويلة من القاهرة	العاشورية

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

							فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي 622هـ/1225م تقع بين سويقة الصاحب ودرب العداس	الفخرية
=								
							؟ القرن السابع الهجري ؟	جهازكس
							السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 566هـ/1170م موضعها مكان يعرف بدار الغزل	القمحية
مالكية						=		
							صفي الدين بن يشكر ؟ بمكان دار الوزير الفا حمي يعقوب بن كلس	الصاحبية
=								
							تقي الدين بن شاس ؟ بالساحل بجوار الربيع العادلي الموقوف على مصالح قبّة الشافعي	مدرسة ابن شاس
=								
							علم الدين بن رشيق بعد سنة 640هـ/1242م وهي بخط حمام الرئيس	مدرسة ابن رشيق
=								
							عز الدين عبد الوهاب الحنبلي بعد وفاة صلاح الدين ؟	مدرسة عز الدين عبد الوهاب الحنبلي
حنبلية						=		
							القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني	الفاضلية
شافعية						=		

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

وما لكية							سنة 580هـ/1184م تقع بدرب ملوخيا من القاهرة	
على المذاهب الأربعة						=	السلطان الصالح نجم الدين أيوب 639هـ/1241م تقع بخط بين القصرين وكان موضعها من جملة القصر الكبير	الصالحية
مجهولة المذهب						=	علي بن محمد بن سليم بن القاضي السديد؟ بزقاق القناديل بالقاهرة	مدرسة السديد
=						=	جمال الدين بن صيرم؟ تقع داخل باب الجمالون الصغير بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش	الصيرمية

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

يتضح من خلال الجدولين السابقين أن المدارس غير السلطانية أكثر من المدارس السلطانية في كل من مدينتي القاهرة وحلب ، وهذا راجع لكثرة الأمراء وكثرة إقطاعاتهم وأيضا محاولة كل أمير أن يتقرب إلى السلطان والناس من خلال وقف المؤسسات الخيرية ومنها المدارس ، لكي يكسبوا رضا السلطان ورضا الناس بعد رضا الله ، ولكن على الرغم من قلة عدد المدارس السلطانية فأنها كانت تتميز بضخامتها وتعدد مذهبها مثل المدرسة الصالحية بالقاهرة .

ونلاحظ أن الفقهاء في كلا المدينتين ساهموا في بناء المدارس، وهذا يعود إلى تشجيع سلاطين الأيوبيين للفقهاء والعلماء وتقريبهم لهم وتولييتهم مناصب عليا في الدولة واقتطاعهم الإقطاعيات السخية مثل القاضي الفاضل⁽¹⁾ بالقاهرة وبهاء الدين ابن شداد⁽²⁾ في

1- القاضي الفاضل هو عبد الرحيم بن علي البيساني كان أبوه يتقلد قضاء مدينة بيسان ، فلهذا نسبوا إليها . وكانت ولادته بمدينة عسقلان في 15 جمادى الآخرة سنة 529هـ/1134م ، ثم قدم إلى القاهرة وخدم الموفق يوسف بن محمد بن الجلال ، صاحب ديوان الإنشاء في أيام الحافظ لدين الله ، وعنه اخذ صناعة الإنشاء . ثم قدم الإسكندرية مدة ، فلما قام بوزارة مصر العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك 556-558هـ/1160-1162م ، خرج أمره إلى والي الإسكندرية بتسييره إلى الباب ، فلما حضر استخدم بحضرته وعين في ديوان الجيش . فلما ملك أسد الدين شيركوه 564هـ/1168م احتاج إلى كاتب فأحضره وأعجبه إتقانه ، وسمته ونصحه ، فاستكتبه إلى أن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاستخلصه وحسن اعتقاده فيه ، فاستعان به على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية ، حتى تم مراده ، فجعله وزيره ومشيده ، بحيث كان لا يصدر أمرا إلا عن مشورته ولا ينفذ شيئا ، إلا عن رأيه ولا يحكم في قضية إلا بتدبيره .

فلما مات صلاح الدين استمر على ما كان عليه عند ولده الملك العزيز عثمان في المكانة والرفعة وتقلد الأمر ، فلما مات العزيز وقام من بعده ابنه الملك المنصور بالملك ودبر أمره عمه الأفضل ، كان مقيما على حاله إلى أن وصل الملك العادل . مات القاضي الفاضل سنة 596هـ/1199م ، ودفن بقرية بالقرافة . (المقرئزي ، الخطط ، ج4 ، ص197-199 ؛ أسامة عبد المنعم حسن، أهل السنة في العصر الفاطمي "دراسة في تطور الفكر المذهبي السني في مصر" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، د ت ، ص107)

2- هو بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الأسدي ولد بالموصل سنة 539هـ/1144م ، وقد عرف بالموصلي نسبة إلى مسقط رأسه، كما عرف بالحلبلي نسبة إلى مدينة حلب التي أقام فيها مدة طويلة حتى توفي . بدأ ابن شداد بتلقيه العلم على يد عدد من علماء عصره أو شيوخه المشهورين، بدء=

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

حلب. وكذلك إسهام التجار في بناء المدارس وقد وجد في حلب مدرسة واحدة وفي القاهرة مدرسة واحدة ، ولاحظنا وجود مدارس بناها عتيق أو خادم في حلب ولم نلاحظ ذلك في القاهرة وربما يعود ذلك إلى محاولة رفع شأن أنفسهم. وكذلك وجود مدارس الفقهاء في كلا المدينتين، ولكن في مدينة حلب أكثر من القاهرة ، وهذا راجع إلى إدراك الفقهاء والعلماء لدورهم في المجتمع وفي الحياة العلمية والجهادية من خلال الإسهام في بناء المنشآت العلمية التي كان لها هدف آخر غير الهدف العلمي وهو شحذ الهمم وإذكاء روح الجهاد لمواجهة الخطر الصليبي.

ثانياً: الأوقاف:

عرفت جميع المجتمعات القديمة ظاهرة الوقف ولكن بصور شتى، ولعل نظام الوقف الإسلامي يرجع في أساس نشأته - بصرف النظر عن التطورات التي لحقت به - إلى الوازع الديني، حيث أرجعه البعض إلى حديث الرسول: (ص) "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا

=بحفظ القرآن ومن ثم العلوم الشرعية الأخرى من حديث وتفسير وغيرها . أجاز القرطبي ابن شداد بقراءة القرآن الكريم ورواية الحديث والتفسير، وكذلك أجازته الشيخ مجد الدين أبو الفضل الطوسي ت 578هـ/1182م ، بعد أن اكتسب العلم الوفير من أكبر المشايخ توجه إلى بغداد والتحق بالمدرسة النظامية وهناك درس وقام بمهمة الإعادة التي كان فيها بمثابة المساعد لشيخ مادة الفقه في المدرسة ، ويأتي في تسلسل الرتب بعد المدرس، عاد إلى الموصل سنة 569هـ/1173م، انتقل إلى مرحلة جديدة من حياته هي مرحلة التدريس والاضطلاع بالنشاطات السياسية التي توجت سنة 584هـ/1188م بالتحاقه بخدمة صلاح الدين الأيوبي ومرافقته له في جهاد الصليبيين ، هذه الرفقة التي أثمرت عن كتابه الخالد "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" توفي ابن شداد سنة 632هـ/1234م. (ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 6 ، ص 81 ؛ G.Makdisi, The Rise of colleges institutions of learning in islam and the west , Edinburgh Univ,Press , 1978 , p. 80 ، سفانة الجبوري ، التكوين العلمي للقاضي الجبوري، التكوين العلمي للقاضي بهاء الدين بن شداد، مجلة اتحاد المؤرخين المغاربة ، عدد 21 ، الرباط 2002م ، ص 184-187)

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

من ثلاث، صدقة جارية، وعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له ⁽¹⁾، ومن هنا عرف الوقف أنه صدقة جارية، أو ما عرف عن النبي (ص) من قوله لعمر بن الخطاب، عندما أراد التقرب إلى الله بأرض له: "إن شئت حبست أصلها وتصدقت بثمرتها" وهكذا كان الوقف "حبس العين والتصدق بالمنفعة" أي أن أصل الوقف لا يباع ويتم التصديق بريع العين الموقوفة ⁽²⁾.

يشترط في الواقف أو المنشئ لمؤسسة خيرية أن تتوفر فيه شروط الأهلية منها: أن يكون الواقف بالغاً رشيداً، مالكا ملكية صريحة للعقار الذي يرغب في وقفه، وأن يتمتع بحرية اختيار واسعة النطاق في تأسيسه لمنشأته الخيرية، وأيضاً أن تكون شروط كتاب الوقف غير مخالف لتعاليم الإسلام بأي حال الأحوال. ⁽³⁾ وأقيمت على الوقف مؤسسات عديدة، منها المؤسسات التعليمية بجميع أنواعها ومؤسسة العلماء والفقهاء، وكانت هذه المؤسسات تعتمد على الوقف كمصدر استقلال مالي دائم وثابت، ولا يتحكم فيه أحد، حيث له شخصية معنوية لا يستطيع أحد أن يوقفه إلا إذا كان الوقف قائماً على شرط من بدايته ⁽⁴⁾.

نعمت المدارس الأيوبية في القاهرة وحلب بأوقاف سخية وغنية، ولكنها بالمقابل تفاوتت في غناها بين المدارس السلطانية والمدارس غير السلطانية، ولكن بشكل عام كان لكل مدرسة وقف يتناسب مع المدرسين والطلبة الموقوف عليهم، بحيث تكفل لهم راتب أو

1- الشوكاني، نيل الأوطار (شرح منتهى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار) ، ج6، القاهرة 1928م ، ص18.

2- محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1991م، ص15-16.

3- جورج المقدسي، نشأة الكليات " معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب " ، ت محمود سيد محمد، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة 1994م، ص44-45.

4- نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة " دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري " دار القارئ العربي، القاهرة 1992م ، ص366.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

جراية محددة في الشهر سواء كانت أقل أو أكثر المهم كان يوجد مرتب يعين الطلبة ومدرسيهم على مصاريف الحياة. وأول من اهتم بالأوقاف في العصر الأيوبي السلطان صلاح الدين حيث عمد إلى وقف أراضٍ من بيت المال على مختلف المؤسسات الدينية والخيرية، وهي الأوقاف التي كانت بمثابة الأرصاد، وإنما ذكرت أوقاف من باب التجاوز، وسبق صلاح الدين في ذلك الخلفاء الفاطميين، ولكن يبدو أن صلاح الدين قد أخذ هذا النظام عن نور الدين زنكي وليس عن الفاطميين⁽¹⁾، وكانت أوقافه سخية على المدارس التي أنشأها في مصر وبلاد الشام، فالمدرسة الناصرية الأولى بمصر والقمحية وغيرها كلها كان لها أوقاف ثابتة ومحددة، ورأينا فيما سبق كيف كان وصف الرحالة الأندلسي ابن جبير⁽²⁾ للمدرسة التي بجانب قبر الإمام الشافعي وكانت الأوقاف تجارية وزراعية مثل سوق الصاغة على الناصرية الأولى وقرية الحنبوشية بالفيوم على المدرسة القمحية بالإضافة إلى قيسارية الوراقين، وقد اقتدى به خلفائه مثل الكامل والصالح نجم الدين أيوب الذين أوقفوا على مدارسهم بسخاء، وأيضا الأمراء مثل تقي الدين عمر صاحب المدرسة التقوية في منازل العز التي أوقف عليها أوقاف سخية وفعل ذلك العلماء والعامة الذين قاموا ببناء المدارس⁽³⁾.

لاحظنا نفس الشيء عند السلاطين الأيوبيين في مدينة حلب.الذين أوقفوا أوقاف سخية تجارية وزراعية وحمامات مثل المدرسة الظاهرية التي بناها الملك الظاهر صاحب حلب 589-613هـ/1193-1216م، التي أوقف عليها سوقا داخل حلب يعرف بسوق الظاهر وبستانا إلى جانبها وضيعة من عمل الباب⁽⁴⁾ وكذلك المدرسة الصاحبية التي أنشأها بهاء

1- محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ط1، القاهرة 1980م، ص61.

2- الرحلة، ص22-23.

3- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص192-194؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص136-137.

4- الباب: وهي بلدة صغيرة قريبة من جند قنسرين، وقريبة من حلب، ويوجد بها سوق، وحمام ومسجد جامع، كما تتميز بوجود جناين كثيرة فيها للنزهة. (أبو الفدا، تقويم البلدان، مدينة باريس المحروسة، بدار الطباعة السلطانية 1840م، ص337).

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

الدين المعروف بابن شداد التي أوقف عليها قرية كفر سلوان⁽¹⁾، وكذلك فعلت ضيفة خاتون في مدرستها "مدرسة الفردوس" التي أوقفت عليها ضيعة كفر زيتا، وثلاثي طاحونها⁽²⁾ اهتم صلاح الدين بأحوال العلماء والفقهاء من الناحية الاقتصادية، وذلك لضمان استمرارهم في العطاء فمثلا ذكر بهاء الدين بن شداد: أن صلاح الدين قد مر على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته، فقرّبه، وجعل له حظا من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة"⁽³⁾ .

تولى ديوان الأحباس النفقة على المدارس، والمقصود بذلك مجموعة المدارس التي شيدها السلاطين الأيوبيون أنفسهم، وأوقفوا عليها أوقافا ينظر عليها ديوان الأحباس من حيث الإيراد والصرف⁽⁴⁾، وكان هناك إعانات أخرى للمدارس غير الأوقاف مثل الزكاة، والهبات، والإعانات، والصدقات كانت موردا للمدارس ولكنه لم يكن ثابتا، وإنما يرتبط بالأغنياء وكبار رجال الدولة ، وهبات وصدقات المحسنين من الأهالي والتجار وغيرهم، وعطاءات السلاطين والحكام والزكاة الشرعية، وهذه مرتبطة بمدى سخاء السلاطين والأمراء وكذلك وفرة الأموال بيد التجار⁽⁵⁾ .

كان للوقف بعض المساوئ حيث كان بعض نظارة الوقف يماطلون المدرسين بدفع رواتبهم وهذا ما دفع أبو شامة⁽⁶⁾ (ت 665هـ/1266م) إلى ترك المدرسة والاشتغال بزراعة

-
- 1- كفر سلوان : من عمل إعزاز التابعة لحلب. (ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب، ج1، ص294)
 - 2- ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب، ج1، ص294-325 ؛ ابن شداد عز الدين، الأعلام الخطيرة، ج1، ص251 وما بعدها.
 - 3- ابن شداد بهاء الدين ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح جمال الدين الشيال ، ط1، القاهرة 1964م، ص9.
 - 4- حسنين محمد ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، دار النهضة العربية، القاهرة 1990م، ص57.
 - 5- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي ، ص195-197.

6- هو شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة لشامة على حاجبه الأيسر ولد بدمشق سنة 599هـ/1202م ، وتوفي سنة 665هـ/1266م ، وهو الفقيه =

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

أرضه وعندما عوتب على ذلك أنشأ قصيدة كبيرة تبلغ 108 بيتا نقد فيها نظام الوقف وما جره على المدارس من أبعاد أهل الكفاءة من بين مدرسيها⁽¹⁾، وربما جاءت هذه المساوي في وقت متأخر أثناء الفوضى والضعف وفي حالات خاصة. ومن أبيات قصيدته نذكر:

أيها العاذل الذي إن تحرى قال خيرا، ونال بالنصح أجرا
لا تلمني على الفلاحة، واعلم أنها من أحل كسب وأثرى
اتخذ حرفة تعيش بها يا طالب العلم، إن للعلم ذكرا
لا تهنه بالاتكال على الوقف فيمضي الزمان ذلا وعسرا
إنما تحصل الوقوف لشريبر ونذل من العلوم مبرا
أو لمن يلزم الأكابر، لا يبرح في خدمة لهم، ومدح، وأطرا
طالباً جاههم، مجيباً إلى كل أمور لهم عكوفاً، مصرا
فترى قاضي القضاة ومن يذكر درسا، يرهه سرا وجهرا
قاصدا قربه، فيصغي إليه فاعلا ما يريد، نفعا وضرا
والضعيف المشغول بالعلم يلقي من ولادة الأمور هجرا وهجرا
وهو المستحق لو أبصروا الحق ولكن عموا فيارب غفرا
إنما كانت المدارس عوناً لأولي العلم حسب، في الناس طرا
درست في زماننا، إذ تولاهما أولو الجهل والحماقة قهرا
صدقات الوقوف ينفر منها كل حر يأتيه صفوا ويسرا
كيف حال الذي يذل لها بالقول، كي يحصل نذرا⁽²⁾.

= النحوي المقرئ النحوي المحدث، بلغ رتبة الاجتهاد، وولي مشيخة القراءة بالتربة الأشرفية ومشيخة دار الحديث الأشرفية. (ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، تح عبد الحافظ عبد العليم خان، ط1، عالم الكتب، بيروت 1986م، ج2، ص134)

1- أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص81.

2- أبو شامة، ذيل الروضتين، نشره السيد عزت العطار، ط1، القاهرة 1947م، ص222.

ثالثاً: التنظيمات الإدارية بالمدارس:

كانت المدارس من الداخل منظمة سواء من حيث الوظائف ومن يديرها والطلبة و أقسامهم، وكان ينظم هذه المدارس من الداخل موظفون منهم المدرسون والمعيدون والإمام..... وحتى الخدم، ومعلوماتنا عن هذه التنظيمات جاءت من كتب ومصادر لاحقة على هذا العصر منها السبكي (ت 771هـ/1369م) في كتابه معيد النعم ومبيد النقم، و القلقشندي (ت 821هـ/1418م) في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وسوف نحاول أن نتعرف على هؤلاء الموظفين من خلالهما وكذلك اعتماداً على بعض الإشارات في المصادر المعاصرة، وكذلك التشابه في الوظائف والموظفين ودورهم في كل من مدارس حلب والقاهرة في العصر الأيوبي، ومن أهم الوظائف التعليمية والتنظيمات الإدارية داخل تلك المدارس:

1- المدرس:

هو الذي يتصدى لتدريس العلوم التي تدرس بالمدرسة من تفسير وحديث وفقه ونحو وتصريف ونحو ذلك. وهو مأخوذ من درست الكتاب دراسة إذا كررته للحفظ⁽¹⁾، وعلى المدرس أن يحسن إلقاء الدرس، وتفهمه للحاضرين. ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدرهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق. وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بهم في مشكلات الفقه، ويخوض بهم عبابه الزاخر⁽²⁾.

طرأت على وظيفة التدريس ضوابط وقيود لم تكن موجودة من قبل ذلك، فلم يعد القيام بها مباحاً لكل من يتصدى لها وإنما أصبح المدرس يعين من قبل السلطان أو الواقف

1- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص464.

2- السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تح محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة 1993م، ص105-106.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

الذي بيده تسيير أمور المدرسة. وكان هؤلاء لا يختارون لهذا المنصب إلا من كان له باع ومكانة علمية مرموقة تؤهله للقيام بهذه المهمة العلمية الجليلة⁽¹⁾.

كانت هناك أسباب رفعت من قدر المدرس، لأن أخذ العلم عن المدرس نال اهتمام المسلمين الذين كانوا يكرهون أخذه عن الكتب وحدها لدرجة أنهم كانوا يقولون: " أن أعظم البلية هو تشيخ الصحيفة أي الذين تعلموا من الصحف"⁽²⁾ وبلغ من سمو مكانة التدريس أنه كان يصدر تقليد أو مرسوم من السلاطين، واعتبرت هي والقضاء من درجة واحدة، وكثيرا ما جمع الشخص الواحد بين الوظيفتين معا، ومن جمع بين الأمرين زين الدين بن أيوب⁽³⁾ وتولى الوظيفتين سنة 595هـ/1198م، في مصر، وكتب له التقليد بذلك الصاحب ضياء الدين بن الأثير الجزري، وكان التقليد يقرأ بطريقة علنية في المسجد الجامع⁽⁴⁾، وفي مدينة حلب بهاء الدين ابن شداد كان قد جمع بين التدريس والقضاء. وكان يساعد المدرس معيدا أو أكثر وهو الذي يتولى مهمة إعادة الدرس بعد فراغ المدرس منه⁽⁵⁾، وكان مدرس الفقه يتولى أكثر من منصب تدريس في أكثر من مدرسة، فيدرس في واحدة ويستخدم من ينوب عنه في التدريس في الأخريات التي عقدت مشيخة تدريسها باسمه، وكان اللفظ

1- محمد أبو غنيمة، تطور التعليم الجامعي في الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1958م، ص 198؛ هالة عبد الحميد السيد جاد، نظامية بغداد ودورها الحضاري، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس 1998م، ص 99-100.

2- ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الكتب العلمية، بيروت 1935م، ص 87.

3- هو علي بن يوسف بن عيد الله بن بNDAR الدمشقي ولي قضاء مدينة دمشق سنة 591هـ/1194م، وعزل منه عدة مرات ثم عاد في عهد الملك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي، لم نعثر على تاريخ وفاته. (السيوطي، حسن المحاضرة، مج 2، ص 132-133)

4- السيوطي، حسن المحاضرة، مج 2، ص 127؛ عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص 178.

5- أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص 76.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

الاصطلاحى لمن يقوم بالتدريس نيابة عن مدرس الفقه هو نائب المدرس. وتسمى وظيفة نيابة التدريس وكان بعض المدرسين يستخدم نوابا يحلون مكانه وخاصة في المدارس الواقعة في المدن المختلفة، ويدفع له مبلغ يتم الاتفاق عليه⁽¹⁾.

اختلفت رواتب المدرسين في القاهرة وحلب كل حسب وقف المدرسة ونوع المدرسة إن كانت سلطانية كان مرتبه عاليا، وإن كانت غير سلطانية كانت المرتبات غير مستقرة، وفي العهد الأيوبي لم يعد هناك مستوى منتظم لمرتبات المدرسين، بل أصبحت هذه المرتبات تتأثر تأثرا واضحا بظروف متعددة، كمقدار الوقف على المدرسة، ومكانة المدرس وسمعته، ثم تأثرت المرتبات بشكل خاص بالأخلاق التي اضطرب مستواها في هذه الفترة، فإذا كان ولي الأمر كريها أو عفيفا أغدق على المدرسين وإذا كان شحيحا أو شرها قل المرتب الذي يمنحه للمدرسين مهما كان ريع الوقف أو شرط الواقف وأيضا كان مركز المدرس العلمي فقد كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني يتقاضى أجر مقداره أربعون دينارا في كل شهر عن التدريس وعشر دنائير لأجل النظر في أوقاف المدرسة، وستين رطلا مصريا من الخبز كل يوم، وراوتين من ماء النيل في كل يوم، وكذلك بنى صلاح الدين المدرسة السيوفية وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي، ورتب له في كل شهر أحد عشر دينارا⁽²⁾.

نستطيع القول بأن المدرس كان يتمتع بمكانة مرموقة ويتقاضى راتبا سخيا في معظم المدارس وكانت مهمة التدريس لها مكانتها ويأتي المدرس على رأس الهرم في المدارس بعد ناظر الوقف، وكثيرا ما كان المدرس هو الذي يتولى مهمة ناظر الوقف، وكانت مهمة المدرس محصورة فيمن يدرس الفقه. أما النحو والحديث فكان يتولى تدريسهما شيخ يطلق عليه شيخ الحديث وشيخ النحو وشيخ الطب وشيخ الفرائض⁽³⁾.

1- جورج المقدسي، نشأة الكليات، ص 213.

2- المقرئزي، الخطط، ج 4، ص 251؛ أحمد شلبي، التربية الإسلامية، ص 248-248.

3- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص 178.

2- المعيد:

يلي المدرس رتبة وعليه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه⁽¹⁾، وكذلك عليه قدر زائد من سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة⁽²⁾، ويكون المعيد عادة أكبر من الطلبة ويقوم بشرح ما صعب على الطلبة فهمه، ومنذ العصر الأيوبي صار منصب المعيد مرموقا. بحيث قل أن خلت مدرسة من مدارس ذلك العصر من معيدين، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية، كما عين الصالح نجم الدين أيوب معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الأربع في مدرسته⁽³⁾، وفي المدرسة الشرفية أعاد فيها عشرة معيدين، وبسبب اختلاف المستوى العلمي للمدارس فقد كان المعيد مدرسا في مدرسة ومعيدا في أخرى، وهذا يدل على علو مكانة المعيد في المستوى الثقافي، بحيث لا تقل فيها وظيفة المعيد عن وظيفة المدرس في المدارس الأخرى، وأحيانا قد يشتغل الشخص الواحد الوظيفتين معا⁽⁴⁾، وأحيانا كانت هذه الوظيفة تسد العجز الذي كانت تواجهه بعض المدارس من جراء نقص المدرسين وهذا ما أكدته المقرئ في روايته عن المدرسة الناصرية الثانية من أنها بقيت ثلاثين عاما (648-678هـ/ 1248-1279م) خالية من المدرسين واكتفي فيها بالمعيدين وكانوا عشرة أنفس⁽⁵⁾.

ليس معنى ذلك أن المعيد كان يبقى في تلك الوظيفة طوال حياته بل أننا لاحظنا كثير من المدرسين بدءوا أول ما بدءوا بالإعادة لأحد المدرسين ثم استقلوا بعد ذلك

1- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص464.

2- السبكي، معيد النعم، ص108.

3- سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام، دار النهضة العربية، القاهرة 1998م، ص142.

4- كمال بدور، مملكة حلب، ص215.

5- الخطط، ج4، ص251.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

بالتدريس، ومعنى ذلك أن الإعادة بالمدارس كانت وظيفة محددة من ناحية العدد في أي مدرسة من المدارس بحسب ما تقضي بذلك شروط وقفها، وكذلك أيضا كان التدريس، فلا يصح أن يرقى معيدا مهما طالت مدة إقامته بالمدرسة إلى درجة مدرس بها أو غيرها من المدارس إلا في حالة خلو ذلك المنصب ممن يشغله مع مراعاة أن يكون موافقا لبقية شروط الواقف⁽¹⁾.

3- الإمام:

هي من الوظائف التي وجد لها مثال في مدارس العصر الأيوبي وخاصة في مصر ووظيفته كانت إمامة المقيمين بالمدرسة في الصلاة، ويذكر المنذري⁽²⁾ (ت 656هـ/1258م) عن أبي إسحاق إبراهيم المازني المقرئ الشافعي الضرير المتوفى سنة 639هـ/1241م من: "أنه أم بالمدرسة الفاضلية في القاهرة إلى حين وفاته" وكذلك أبو المهند حسام بن مرهف بن اسماعيل الفزاري الشافعي المتوفى سنة 613هـ/1215م من أنه أم بالمسجد الذي بين القصرين مدة وأم أيضا بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة المحروسة مدة.

4- القارئ:

هو من موظفي المدارس الأيوبية وهو الذي يقرأ القرآن داخل المدرسة.⁽³⁾ وأورد السبكي ثلاث من الوظائف التي تتعلق بقراءة القرآن داخل المدرسة: قارئ العشر وهو الذي ينبغي عليه أن يقدم قراءة العشر وذلك قبل الدرس، والقراء الذين كانوا يقرؤون بالألحان وهم الذين عليهم أعمال جهدهم في تأدية كلام الله تعالى كما انزل بلفظ بين، وقارئ الكرسي، وهو الذي يجلس على كرسي يقرأ على العامة شيئا من الحديث والتفسير⁽⁴⁾ وكان الصالح أبو الربيع سليمان أبو عبد الله بن يوسف الهواري المتوفى سنة 612هـ/1216م، قرأ وأم الناس بالمدرسة الصاحبية بالقاهرة، ولا نعرف أي من الوظائف السابقة كان مختصا بها⁽⁵⁾.

1- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص 149.

2- التكملة لوفيات النقلة، ج3، ص479، ج2، 361؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص150-151.

3- المرجع نفسه، ص151.

4- معيد النعم، ص109-114.

5- المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج2، ص361، 341، ج3، ص368.

5- المؤذن:

عليه معرفة الوقت، وإبلاغ الصوت، ويؤذن للصبح من نصف الليل وعند دخول الوقت . ولذلك يسنّ للصبح مؤذنان⁽¹⁾ وذكر المنذري⁽²⁾ (ت 656هـ/1258م) عن أبي الحسن علي اللخمي " من أنه سمع بدمشق وبمصر من غير واحد وحدث وولي الأذان بالمدرسة الصاحبية بالقاهرة المحروسة إلى حين وفاته سنة 639هـ/1241م.

6- الناظر:

هو عادة ما يكون مدير المدرسة وناظر أوقافها وهو الذي يشرف على الوقف، وربما يكون الناظر صاحب الوقف أو المدرس أو مشرف آخر ، وقد لاحظنا في عهد صلاح الدين قد أوكل مهمة التدريس والإشراف في المدرسة الصلاحية لنجم الدين الخبوشاني، وكان مدرسا ومشرفا على الوقف والمدرسة، وكذلك الشيخ الجبرتي في المدرسة السيوفية.⁽³⁾ ولاحظنا ذلك أيضا في مدارس حلب مثل المدرسة الصاحبية مع ابن شداد فقد كان مدرسا وصاحب المدرسة والمشرّف عليها وكذلك ابن العجمي فعل في مدرسته الشرفية.

7- الخدم "المستخدمون":

يوجد في كل منشأة سواء كانت مسجدا أو مدرسة طائفة تقوم على خدمة الموظفين وأمور التنظيف والحراسة أحيانا، وقد جرت العادة في مدارس مصر والشام أن يكون لها أبواب لتنظيم الدخول والخروج بها، ودفع من يرتاب فيه ومن يكثر الدخول لغير حاجة، وكان من حقه المبيت بقرب الباب بحيث يسمع من يطرقه عليه وإغلاق الباب ولا يفتح بابها إلا في وقت معلوم⁽⁴⁾.

1- السبكي، معيد النعم، ص115.

2- التكملة لوفيات النقلة، ج3، ص572.

3- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص182-183.

4- المرجع نفسه، ص184-185.

8- خازن المكتبة "موظفو المكتبة" :

يوجد في كل مدرسة مكتبة تحتوي على أمهات الكتب من أجل مطالعتها من قبل الطلاب والمدرسين، وقد عرف لنا السبكي⁽¹⁾ خازن الكتب بقوله: "وحق عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعنها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضن بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتاب على الأغنياء، وكثيرا ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته وهو شرط صحيح معتبر فليس للخازن أن يعير إلا برهن".

كان يشترط في خازن الكتب أن يكون عالما فقيها، وكان يتولى هذه الوظيفة أحد العلماء أو الأدباء ليكون عوناً للطلبة والباحثين ويمكنه إرشادهم للمراجع، وكان الناظر يسلم الكتب إلى الخازن ويقوم بمراجعتها ونفض الغبار عنها وترميمها وكان أحيانا يختار من بين الطلبة المترددين على المدرسة، وكان يتسلم الخزانة بحضور الشهود ويعتبر مسؤولاً عنها، وقد حددت العطلة التي يحصل عليها مثل الحج أو زيارة الأهل فكان يسمح له بثلاثة أشهر لا غير، ومن غاب عن وظيفته شهرا بغير عذر استبدل بآخر⁽²⁾.

وكانت مهمة خازن المكتبة الإشراف العلمي والإداري على المكتبة، فهو يمد المكتبة بالكتب الجديدة، ويلاحظ دقة الفهارس وتنظيمها وشمولها، ويسر للقراء عملهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وكان عادة ما يوجد في المكتبة موظفون آخرون حسب حجم المكتبة، فكان يوجد النساخون والمجلدون وغيرهم كثير⁽³⁾.

1- معيد النعم ، ص111.

2- زبيدة محمد عطا، مكتبات المدارس "خزانة الكتب" في العصريين الأيوبي والمملوكي، أبحاث ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية من 22-25 أبريل عام 1991م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م، ص220.

3- أحمد شلبي، التربية الإسلامية، ص161.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

بالإضافة إلى هذه الوظائف كان يوجد وظائف أخرى مثل مباشري الإدارة وعملهم ابتياع ما يحتاج من الأصناف، وضبط ما يدخل منه خاصة من غير أن يكون لهم تعلق في استخراج الأموال، ومباشرى الصندوق والرباع وإليهم يرجع تحرير الأوقاف في الخلق والسكون والتعطيل واستخراج الأموال ومحاسبة المتأخرين وصرف الأموال بمقتضى حوالة مباشرى الإدارة، وأيضا كان يوجد وظيفة مباشرة العمارة الذين كانت وظيفتهم القيام بالإصلاحات المعمارية اللازمة من ابتياع الأصناف واستعمال الصنائع وغير ذلك⁽¹⁾.

رابعاً : طلاب المدارس :

يعتبر طلاب المدارس هم الأساس الذي تقوم بهم العملية التعليمية ويصبح للمدرسة وجود، وقد حرص بناء المدارس أو الواقفين عليها تحديد عدد الطلبة في كل مدرسة وقد اختلف ذلك حسب المدرسة فإن كانت مدرسة سلطانية فهي أكبر حجماً واتساعاً وأكثر وقفاً، فلذلك يكون عدد الطلاب أكثر، أما المدارس غير السلطانية فهي أقل حجماً واتساعاً من الأولى فيكون عدد الطلاب بها محدوداً، ولم نعثر في أغلب المصادر على عمر محدد لطالب من أجل دخوله المدرسة، ولا سنوات الدراسة التي سوف يقضيها في المدرسة ولكن كان هناك طلاب منتظمون، وطلاب غير منتظمين وطلاب الرحلات العلمية أو الغرباء، وسوف نتحدث عنهم بشيء من التفصيل.

أ- الطلاب المنتظمون :

هم الطلبة النظاميون الذين رتبوا على حسب ما تقتضيه حجة وقف كل مدرسة على حدة، ويحتمل أن عددهم كان معروفاً ثابتاً بشرط الواقف، ولكن لم يكن عدد الطلبة محدد بشكل دقيق، فالمقريزي (ت. 845هـ/ 1442م)⁽²⁾ يذكر عن المدرسة القمحية: "أنه رتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة". وكذلك ما ذكر عن المدرسة السيوفية

1- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص 183-184.

2- الخطط، ج4، ص 193-194 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص 154.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

ومدرسها مجد الدين الجبتي الذي جعل له النظر في أوقاف المدرسة فقد سمح له بحرية التصرف بعد راتبه في باقي ريع الوقف حيث قال: "وباقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم"⁽¹⁾ الذي يدقق النظر في ذلك النص يكتشف أن طلبة الحنفية بالمدرسة السيوفية كانوا مقررين أي محددين العدد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا نجد في ذلك النص ما يؤكد على تصنيف السبكي لطلاب المدرسة على قدر طبقاتهم⁽²⁾ وهم:

فقهاء المدرسة:

هم من طلاب المرحلة الأولى بالمدارس الإسلامية وعليهم قدر زائد من غيرهم في الالتزام بشروط الوقف من ناحية الانتظام في حضور الدرس والالتزام بقواعد المدرسة الخاصة بسلوك الطالب أثناء الدرس وغيرها من القواعد الأخرى المتعلقة بحياة الطالب داخل المدرسة⁽³⁾ ويقول السبكي⁽⁴⁾ بهذا الصدد: "وعليهم التفهم على قدر إفهامهم، والمواظبة ومن أقبح ما يرتكبونه، تحدث بعضهم مع بعض في أثناء قراءة الجزء من الربعة، فلا هم يقرؤون القرآن، ولا هم يسلمون من اللغو في الكلام، فإن انضم إلى ذلك أن قراءة الجزء شرط الواقف عليهم، وأن حديثهم في الغيبة فقد جمعوا محرمات، ومنهم من لا يصغي للمادح، وربما فتح كتابا ينظر فيه، ولا ينظر لما يقوله المدرس، بل يجلس بعيدا عنه بحيث لا يسمعه. وهذا لا يستحق من المعلوم شيئا، ولا يفيد أن يطالع في كتاب وهو في الدرس فلو اكتفى الواقف منه بذلك لما اشترط عليه الحضور.

المنتهي من الفقهاء:

عليه من البحث والمناظرة فوق ما على من دونه. فإن هو سكت وتناول معلوم المنتهي إليه لكونه في نفسه أعلم من الحاضرين فما يكون شكر نعمة الله تعالى حق شكرها⁽⁵⁾، وهم

1- المقرئزي، الخطط، ج4، ص196.

2- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص154-155.

3- المرجع نفسه، ص155.

4- معيد النعم، ص108-109.

5- السبكي، معيد النعم، ص108.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

طلاب المرحلة الثانية وعليهم قدر زائد على طلبة المرحلة الأولى من ناحية الاستماع للمدرس والمشاركة بعد ذلك في الدرس بالحوار والمناظرة مع المدرس وكان المعلوم الذي يتقاضونه أكبر من طلاب المرحلة الأولى⁽¹⁾.

المفيد:

هو من طلاب المرحلتين السابقتين إلا أنه قد ارتقى عليهم بعلمه وبالطبع فإنه كان أكثر منها مشاركة في الدرس من ناحية الحوار والمناظرة⁽²⁾، ويقول السبكي⁽³⁾ عنه: "عليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس من فائدة، من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك من أوضاع لفظ الإفادة وخصوصيتها، وكان أخذه العوض في مقابلتها حراماً". وربما كان المفيد بمثابة طالب دراسات عليا يقوم بإجراء مزيد من الأبحاث أكثر مما يقوم به الطلاب العاديين، وبذلك فهو مرشح لتولي وظيفة المعيد⁽⁴⁾.

شيخ الرواية:

وعليه أن يسمع المحدثين، ويستمع لما يقرؤونه لفظة لفظة، بحيث يصح سماعهم، وليصبر عليهم، فإنهم وفد الله تعالى، ومتى وجد جزء حديث أو كتاب تفرد شيخ بروايته كان فرض عين عليه أن يسمعه⁽⁵⁾ وشيخ الرواية أرقى رتبة في المدارس الإسلامية يمكن للطلاب الوصول إليها إذ كان نشاطه العلمي قد تعدى حدود الدروس التي كان يتعلمها في المدرسة، وقد بدأ السعي بنفسه وراء كلام يتعلق بالعلم الذي يدرس من الكتب والعلماء، سواء كان ذلك داخل المدرسة أو خارجها⁽⁶⁾.

1- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص155.

2- المرجع نفسه، ص155.

3- معيد النعم، ص108.

4- جورج المقدسي، نشأة الكليات، ص219.

5- السبكي، معيد النعم، ص111.

6- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص155-156.

ب- طلاب غير منتظمين:

وهم الذين كانوا يحضرون مجالس العلماء بالمدارس بصفة غير منتظمة على حسب ما تقتضيه في ذلك ظروفهم، ولذا فإنه لم يكن بالضرورة أن يشملهم شرط الواقف من حقوق أو واجبات⁽¹⁾.

ج- طلاب الرحلات العلمية أو الغرباء:

وهم الطلاب الذين يقومون برحلات من أجل أخذ العلم عن مشاهير بلده، والانتقال من بلد لآخر من أجل مزيد من العلوم. وقد كثر في المدن الأيوبية في مصر القاهرة والإسكندرية وكذلك مدن بلاد الشام دمشق وحلب وغيرها عدد هؤلاء الطلاب وكان في مصر معظمهم من المغاربة والأندلسيين ومن بلاد التكرور كما رأينا فقد بنوا مدرسة ابن رشيقي لذلك الغرض، وكان هؤلاء الطلاب الغرباء يقيمون بالمدارس لما تتمتاز به من خدمات خاصة بالطلاب ووجود أجل العلماء فيها، وهؤلاء الطلاب لم يكن لهم سن معين وكانوا ينتفعون من الخدمات المتوفرة لطلبة المدارس، فأصبحت مصر محطة لطلاب الغرب الإسلامي وخاصة مدينة الإسكندرية⁽²⁾.

خامسا: أساليب التعليم:

تنوعت أساليب وطرق التدريس في المدارس الأيوبية، وكانت تتبع أسلوب متشابه إلى حد ما في كل مدارس ذلك العصر، ولا يوجد مصدر تاريخي مباشر يعطينا فكرة واضحة عن هذه الطرق والأساليب، وإنما من خلال الاعتماد على بعض الكتب المتأخرة، وكذلك بعض الإشارات في المصادر الأيوبية يمكن استخلاص بعض هذه الطرق، وكان هناك عدة طرق للتدريس فمنها: الحلقة، والمجلس، والإملاء والتلقين وغيرها. وكان يرافق هذه الطرق بعض الآداب الخاصة بالطلاب والمعلمين وسوف نتحدث عن كل طريقة على حدة.

1- المرجع نفسه، ص 157.

2- إبراهيم المزيني، الحياة العلمية، ص 217؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص 156.

أ- الحلقة:

وفيها يجلس الشيخ أو المدرس على حشية صغيرة (شلتة) أو على منصة، ويغلب أن يكون ظهره إلى حائط أو سارية من سواري المسجد، ويكون الحضور حلقة أمامه ، ويكون هو في أبرز نقطة في محيطها، ويجلس المستمعون في الحلقة بترتيب دقيق، لكل طبقة منها مكان معين فيها ⁽¹⁾، وقد وصف ابن جماعة ⁽²⁾ (ت 733هـ/1332م) ذلك إذ قال: "وقد جرت العادة في مجالس التدريس بجلوس المتميزين قبالة وجه المدرس أو المبجلين من معيد أو زائر عن يمينه أو يساره وينبغي للرفقاء في درس واحد أو دروس أن يجتمعوا في جهة واحدة ليكون نظر الشيخ إليهم جميعا عند الشرح ولا يخص بعضهم في ذلك دون بعض". يستدل من النص السابق أن نظام الجلوس بين يدي المدرسين دقيق بحيث لا يأخذ شخص مكان شخص آخر. وربما جاء اسم الحلقة من التحليق حول المدرس، وكانت هذه الحلقات قليلا ما توجد في المدارس بسبب نظام القاعات وربما كانت هذه الحلقات تعقد في حرم الصلاة في المدرسة أو في القاعة نفسها.

ب- المجلس:

نظام المجلس هو من أنظمة التعليم في المرحلة العليا إلى جانب نظام الحلقة، وكانت المجالس تعقد في قصور السلاطين والأمراء والوزراء وبيوت العلماء وفي المدارس والبيمارستانات وخزائن الكتب، لأن بعض العلماء لا يريدونها في المساجد، وكان مثل هذا النظام متبع في المدارس ، وكانت هذه المجالس تنقسم إلى عدة أقسام منها مجالس الوعظ، ومجالس المناظرات، ومجالس التدريس، ومجالس الإملاء . ويهمننا من هذه المجالس مجالس التدريس وهي تختص بالتدريس سواء الفقه أو النحو أو الأدب، وهي تعقد في المدارس وخزائن الكتب وتكون مقصورة على الطلبة المسجلين في المدرسة، وربما كان الأسلوب المتبع في الدرس هو الحوار والنقاش من خلال القراءة وكان الدرس يستمر أحيانا ثلاث ساعات ⁽³⁾.

1- أحمد شلبي، التربية الإسلامية، ص382.

2- تذكرة السامع والمتكلم ، ص149-151.

3- رضوان الليث، الحياة العلمية ، ص153-155.

سادسا: طرق التدريس:

اعتمد التدريس في المدارس الأيوبية عادة على الإلقاء والسماع والتلقين والإملاء والقراءة، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه خاصة في المرحلة الأخيرة⁽¹⁾، من هذه الطرق نذكر:

أ- السماع:

كان التركيز في التعليم في القرون الأولى على السماع وحده، لعدم توافر متطلبات الكتابة والتدوين في المجتمع الإسلامي آنذاك وكرهية الناس كتابة ما يروونه خوفا من أن يشتبه ذلك مع ما يكتبونه بالقرآن، وصعوبة الحصول على الورق اللازم للكتابة⁽²⁾ والسماع هو سماع لفظ الشيخ إملاء أو تحدثا، سواء كان من حفظه أو من كتاب، وهو أرفع طرق التدريس، وهي طريقة تلازم طالب العلم في بداية حياته العلمية لأنه لا يمكن أن يصل إلى مستوى عال من العلم دون السماع من كثير من العلماء⁽³⁾.

ب- الإملاء:

وهي من الطرق المحببة في التدريس ويصفها السمعاني⁽⁴⁾ (ت 568هـ/1172م) بقوله: "إذا أُملي عليك المحدث وكتبت أنت من لفظه فلا يتطرق إليه نوع من الفساد لأنه يعرف ما يُملي وأنت تسمع وتفهم ما تكتب". ازدادت أهمية الإملاء عندما استخدم الورق وأصبح من أعلى مراتب التعليم، ونتيجة لطريقة الإملاء اشتهرت كتب الآمالي، التي هي عبارة عن محاضرات يُمليها الشيخ أو المدرس على تلاميذه في مسجد أو في مدرسة، وكان المستملي يكتب أول الصفحة "مجلس إملاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا"⁽⁵⁾ ويستحب للمملي

1- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص 190.

2- أحمد خالد جوده، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة 2001م، ص 333.

3- رضوان الليث، الحياة العلمية، ص 159.

4- أدب الإملاء والإستملاء، تح شفيق محمد زيعور، ط1، دار أقرأ، لبنان 1984م، ص 69.

5- أحمد خالد جوده، المرجع السابق، ص 334.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

أن يقعد على موضع مرتفع مثل دكة أو كرسي فإن لم يجد أملى قائماً لأن المقصود من الإستملاء أن يبلغ جميع الحاضرين ⁽¹⁾.

ج- القراءة:

وهذه الطريقة يوجد لها أسلوبان : الأول يقرأ العالم من كتاب أو من أصل حفظه، وطلبته يستمعون إليه، والعالم في هذه الحالة يجب أن يكون صوته مرتفعاً حتى يسمعه كل من حضر مجلسه. والثاني فهو أن يقرأ طالب العلم على العالم كتابه أو مسموعاته، وهو يسمع بحضور طلبة العلم، وهذا يسمى العرض، والعالم أثناء قراءة الطالب يعلق عليه ويشرح ما يمكن شرحه ويحتاج إلى ذلك، وقد يعترض على بعض ما لم يكن له علم بها ⁽²⁾.

د- المناظرة والمناقشة:

وكانت تقوم على أساس الأسئلة والأجوبة، والمدرس يقوم أحياناً مقام السائل، فيلقي على الطلاب بضعة أسئلة ليختبر فهمهم، وليجيب بنفسه على ما تعسر عليهم أن يجيبوا عنه، وهو بهذا يعطي فرصة للطلاب محدودي المواهب أن ينتفعوا بما تستدعيه هذه الأسئلة وأجوبتها من إعادة للموضوع وزيادة بسط لمسائله ⁽³⁾ وربما يدخل ضمن هذه الطريقة المذاكرة والتسميع، وكانت المناقشة بشكل عام تطرح موضوع معين ويقوم المدرس بأخذ آراء وأجوبة الطلبة ثم يصححها ويعطي الجواب الصحيح، وربما كان يقوم فيها نوع من الجدل لاختلاف الآراء واختلاف أجوبة الطلبة.

سابعاً: آداب الدرس:

يفتح الدرس عادة بالبسملة ثم قراءة شيء من كتاب الله تعالى تبركا وتيمناً وبعد ذلك يدعو لنفسه وللحاضرين وسائر المسلمين ثم يستعيز بالله من الشيطان الرجيم ويسمي الله تعالى ويحمده ويصلي على النبي وعلى آله وأصحابه، ويترضى على أئمة المسلمين ومشايخه،

1- السمعاني، أدب الإملاء والإستملاء، ص 168.

2- رضوان الليث، الحياة العلمية، ص 161-162.

3- أحمد شلبي، التربية الإسلامية، ص 386.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

ويدعو لنفسه وللحاضرين ولوالديهم أجمعين وللواقف، وكانت الدروس والمواد تقدم حسب الأشراف منها فالأشرف والأهم فالأهم فيقدم تفسير القرآن ثم الحديث ثم أصول الدين ثم أصول الفقه ثم المذهب ثم الخلاف أو النحو أو الجدل، وكان بعض العلماء الزهاد يختتم الدروس بدرس رقائيق يفيد به الحاضرين، وإن كان هناك شروط من الواقف في العلوم التي يجب أن تدرس فيها اتبعها ولا يخل بما هو أهم ما بنيت له تلك البنية ووقفت لأجله⁽¹⁾، وينبغي إلا يطيل في الدرس تطويلا يمل ولا يقصره تقصيرا يخل، ويراعى في ذلك مصلحة الحاضرين في الفائدة في التطويل ولا يبحث في مقام أو يتكلم على فائدة إلا في موضع ذلك فلا يقدمه عليه ولا يؤخره عنه إلا لمصلحة تقتضي ذلك وترجحه⁽²⁾، وكانت هناك بعض الآداب المتعلقة بالطلاب من حيث الاستماع وعدم مقاطعة المدرس والتأدب في الجلوس والكلام وعدم التأخر عن الدرس وعدم مغادرة الدرس قبل انتهاء المحاضرة وغيرها من الآداب المتعلقة بالطلبة والمدرسين.

ثامنا: علاقة الطلاب بالأساتذة:

كانت هنالك علاقة قوية بين الطلاب وأساتذتهم ولعل ما اشترط في المدرس من صفات وقدرات توضح لنا أن هؤلاء الأساتذة كانوا نموذجا طيبا للعلاقة الطيبة مع الدارسين فقد كانوا يطلبون منه أن يكون ملما بالعلوم وأن يكون كثير البحث مع طول أناة ليتسنى له دراسة نفسية من يعهد إليه، ويستطيع بالتالي النزول إلى مستواه ويعمل على الاتصال العاطفي معه⁽³⁾، وهناك أدلة واضحة على المعاملة التي كان يعامل بها المدرسون الطلبة فهي هو العالم الخبوشاني الذي عينه صلاح الدين على المدرسة الصلاحية كان يعامل الطلبة معاملة الأب لأبنائه ويحاول تقصي أخبارهم والسؤال عن مشاكلهم ومحاولة حلها

1- ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص34-35.

2- المصدر نفسه، ص35-36.

3- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص187؛ أسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت د.ت، ص129.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

حتى يتفرغوا لطلب العلم، وقد خرج في بعض الليالي يطوف على بيوت الطلبة بالمدرسة فسمعهم يقرؤون القرآن حتى أتى على خلوة فنظر من خلال الباب فرأى صاحب الخلوة وقد وضع الكتاب من يده وأنشد بعض أبيات الشعر التي تنم عن حالته، فلما أصبح النهار سأل الشيخ الخبوشاني الطالب عما به وأخبره بما سمعه منه في الليلة السابقة، وحل مشكلته⁽¹⁾، وفي ذلك دلالة واضحة على انه لم يكن يهتم بإلقاء الدروس فقط وإنما تعدد ليصبح المربي والمعلم والناصح لطلبة، وكان المدرسون في المدارس نموذجاً يحتذى بهم علماً وعملاً فلم يكن تأثيرهم وعلاقتهم بالطلبة تتوقف عن الأثر العلمي، وإنما كانت أخلاق هؤلاء المدرسين نبراساً وهدى سار عليها الطلبة في حياتهم فخرجت هذه المدارس نماذج طيبة من العلماء الذين لعبوا دوراً كبيراً في الحياة السياسية والدينية وحتى الحربية وخاصة أثناء الحروب الصليبية وما بعدها⁽²⁾.

تاسعاً: الإجازة:

وتعني أن طالب العلم يستجيز العالم علمه فيجيزه، وتستحسن الإجازة إذا علم المجيز ما يجيز وكان المجاز له من أهل العلم، والإجازة ليست خاصة بالمحدثين، وإنما اشتملت على بقية العلوم، وكانت هذه الإجازات بمثابة الشهادات التي تمنح اليوم للطلاب، فلا يستطيع أي طالب علم أن يروي أي علم من العلوم إلا بإجازة من العلماء الذين أخذ منهم، وتكون مثل إعطاء العالم كتبه أو بعضها لطالب العلم، ويعطيه إذناً بروايتها، أو إجازة العالم لطالب العلم أو غيره من العلماء برواية جميع قراءاته ومسموعاته⁽³⁾.

تكون الإجازة بوصول الطالب إلى مرحلة يقتنع أستاذه عندها أنه أصبح أهلاً لأن يجلس مجلس الأستاذ، فيمنح بذلك الإجازة، ولا يصل الطالب إلى مرتبة الفقيه إلا إذا أمكنه

1- ابن الزيات، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الصغرى والكبرى، القاهرة 1907م، ص 214-215.

2- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص 188.

3- رضوان الليث، الحياة العلمية، ص 162-164.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة وآثارها السياسية والحضارية

أن يعترض على أستاذه ويصير إلى حالة يمكنه فيها أن يقول له: لم؟ ويجسن الاعتراض عليه، وقد تنوعت هذه الإجازات: فمنها ما يمنح للطلاب يحيزه بتدريس المواد التي أجاد دراستها، وينص في الإجازة على هذه المواد، وأعتاد الأستاذ أن يثني على تلميذه في إجازته، فهذا مجد الدين علي القشيري يحيز محمد بن علي القوصي بالتدريس، ويكتب في إجازاته: الفقيه العالم عماد الدين محمد، بدأ القرآن العظيم، فأحكم القراءات السبع، ثم ثنى بالاشتغال بمذهب الإمام الشافعي درساً وتكراراً، فحتم على المذهب أو أكثره، ثم اشتغل بعلم التفسير، تفسير القرآن العظيم وفيها شهادة الشيخين الفقيهين العالمين: بهاء الدين هبة الله الففطي، وجلال الدين أحمد الدشناوي، شهدا على شيخهما، وأثنى كل منهما على المجاز المذكور، وأرخ الشيخ بهاء الدين في رسم شهادته بالنصف من شعبان سنة 650هـ⁽¹⁾.

وقد يحيز الأستاذ تلميذه بالتدريس والفتوى معاً. كما أجاز ابن دقيق العيد تلميذه عمر بن المفضل وكان ابن دقيق العيد يتأنق في إجازاته قال بعد سؤال شمس الدين له بالإجازة: أستخير الله تعالى في الإيراد والإصدار، واعتصم به من آفتي التقصير والإكثار، واستغفر الله فيما فرط في الجهر والإسرار، وأقول: أني ذاكرت فلانا زينه الله بالتقوى، وحرسه في السر والنجوى، في فنون من العلوم الشرعية: العقلية والنقلية، فألفيته يرجع إلى معقول صحيح، ومنقول صريح، وإطلاع على المشكلات، واضطلاع بحل المضكلات، لا سيما في فقه المذهب، فإنه أصبح فيه كالعلم المذهب، وقام بعلم العربية والتفسير، فصار فيها الفاضل النحرير، وقد أجبته إلى ما التمس، وإن كان غنيا بما حصل واقتبس، فليدرس مذهب الشافعي لطالبه، وليجب المستفتي بقلمه وفيه، ثقة بفضل الباهر، وورعه الوافر، وفطرته الوقادة، وألعيته النقادة، والله تعالى ينفعنا وإياه بما علمناه، ويرفعنا بذلك لديه فما القصد سواه⁽²⁾.

وقد تكون الإجازة بالفتوى فحسب، أو برواية الحديث، كما أجاز السلفي لعلي بن يوسف القفطي الوزير أن يروي عنه، وقد يحيز الأستاذ لطالبه أن يروي مصنفاته، أو يروي

1- أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص 88-89.

2- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج 4، ص 258؛ أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص 89-90.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

مسموعاته، أو أن يدرس كتابا بعينه، قد درسه عليه، وهناك شهادات للعلماء بقراءة الطلبة عليهم مادة بعينها⁽¹⁾، وما كانت هذه الشهادة تصل إلى درجة الإجازة، والغالب فيما يمنح من الإجازات أن يكون قصيرا أو قد تطول الإجازة حتى تصبح قريبة من كراستين، كهذه الإجازة التي منحت لابن شداد، وفيها يذكر كل شيء بالتفصيل⁽²⁾.

عاشرا: المنشآت الرئيسية بالمدرسة:

أ- قاعات الدرس:

وجدت هذه القاعات في كل المدارس الإسلامية، وكانت هذه القاعات مناسبة لعدد الطلبة المنتسبين لكل مدرسة وقد رأينا في المدرسة القمحية التي بناها صلاح الدين أن جعل لها أربع قاعات للدرس بحيث يكون لكل قاعة مدرس وذلك على الرغم من أن المدرسة القمحية كانت قد أوقفت على مذهب واحد هو المذهب المالكي. وكان الإيوان هو الذي يراد به قاعات الدرس وهو لغة البيت المرتفع البناء غير مسدود الوجه، أي أن قاعة مسقوفة بقبوه مفتوح مقدمها على بهو يعقد، وربما وجد في المدارس أيضا قاعات مغلقة. وكان يوجد بالمارستان أيضا قاعة محاضرات⁽³⁾.

ب- مساكن الطلبة:

أدى ازدهار العلم وازدياد أعداد الطلاب إلى إقامة مراكز خاصة بالتعليم كان الهدف منها أن تستوعب هذا الكم الكبير من الدارسين والطلاب، وكانت هذه المساكن تختص بالمدرسين والطلبة أيضا بالإضافة إلى خدم المدرسة، وكان المدرسون يسكنون في المدارس من ذلك ما ذكره المنذري (ت 656هـ/1258م) عن أبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب الذي كان يسكن بالمدرسة السيوفية " وكانت وفاته بمنزله الذي بالمدرسة السيوفية التي بالقاهرة " وكذلك العز بن عبد السلام الذي توفي بمنزله بالمدرسة الصالحية، وهذه الدور لعبت دورا

1- المرجع نفسه، ص 90.

2- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 354.

3- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص 165؛ أحمد فكري، مساجد القاهرة، ص 86-

87؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص 157.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

بارزا في استقرار أحوال المدرسين فقد كان المدرس قريبا من مكان درسه ويخفف ذلك عنه كثيرا من العناء، وكانت هذه المساكن من مفاخر المدارس وكانت هذه المساكن تضم الطلبة أيضا وهذا ما دفع كثير من الطلاب من القرى والبلاد البعيدة إلى الالتحاق بالمدارس لتوافر كل متطلبات التعليم من علم وعلماء ومدارس ذات شهرة واسعة وتوافر المسكن وكذلك وجد المرتب نتيجة الوقف السخي على هذه المدارس

عني السلاطين الأيوبيون ومن قبلهم الزنكيين والفاطميين بإنشاء دور لسكن الطلاب والمدرسين ومن ضمن ذلك ما ذكره ابن العجمي (ت 884هـ/1479م) "من أن نور الدين عندما ملك مدينة حلب سنة 541هـ/1146م، حول مسجد السراجين إلى مدرسة حدد فيها مساكن يأوي إليها الفقهاء وديوانا" أما عن كيفية بناء هذه البيوت فقد كانت غرfa صغيرة بعضها من طابق واحد ومعظمها من طابقين وعددها يتفاوت من مدرسة لأخرى ولكنه يتناسب مع حجمها ومع سعة بهوها وبيت صلاتها⁽¹⁾.

ج- مكتبات المدارس:

تمثل المكتبة أو "خزانة الكتب" جزءا هاما من الأداة التعليمية في العصر الأيوبي التي تمثلت في المدارس، فلقد حوت أغلب مدارس ذلك العصر خزائن للكتب لتكون عوناً للطالب على استيعاب دراسته وخاصة أن الكتب آنذاك كانت تكلف مبالغ باهظة⁽²⁾، ووجدت المكتبات قبل المدارس منذ عهدي الحمدانيين⁽³⁾ في حلب وال طولونيين في مصر،

1- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص167؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص158؛ ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب، ج1، ص340؛ أحمد فكري، مساجد القاهرة، ص121؛ محمد أبو غنيمة، تطور التعليم، ص187.

2- ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص214-215؛ زبيدة محمد عطا، مكتبات المدارس، ص203.

3- وجدت في حلب مكتبتان خاصتان على جاب كبير من الضخامة هما مكتبة سيف الدولة الحمداني (303-356هـ/915-966م) التي جعلها في عهدة الشاعرين أبو فراس الحمداني والمتنبي، ومكتبة جمال الدين القفطي ت 646هـ/1248م التي جمع فيها من الكتب ما لا يوصف، وقصد بها من الآفاق وكان لا يجب من الدنيا سواها، وكانت تساوي خمسين ألف دينار. (الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص193؛ عبد الستار الطلوجي، لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1991م، ص46)

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

امتازت هذه المكتبات بأنها دسمة وغنية بالكتب وخاصة وأن المكتبة الفاطمية الضخمة⁽¹⁾ قد بيعت كتبها في المزاد واشترى كثير من العلماء هذه الكتب ما عدا التي حرقوا وكان القاضي الفاضل قد حصل على عدد كبير من هذه الكتب وأوقفها على مكتبة مدرسته التي أنشأها وهي المدرسة الفاضلية، وقد حوت كتب من شتى أنواع المعرفة البشرية بالإضافة إلى مكتبته الخاصة التي كان يحتفظ بها في بيته التي آلت إلى ابنه الأشرف من بعده. وكذلك مكتبة المدرسة الكاملية التي أنشأها الملك الكامل سنة 622هـ/1225م، ومكتبة المدرسة الصالحية التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة 639هـ/1241م، ومكتبة المدرسة الظاهرية التي أسسها الملك الظاهر 589-613هـ/1193-1216م في حلب، ومكتبة المدرسة الشرفية بحلب أيضا، وجدت في العصر الأيوبي مكتبات في المساجد والمارستانات والخانات⁽²⁾ وكان للمكتبة في المدرسة مكان مخصص ولها موظفين خاصين بها. وقلمها خلت مدرسة من مدارس بني أيوب التي انتشرت في أرجاء دولتهم من مكتبة مزودة بمجموعة صغيرة أو كبيرة من الكتب تبعا لمكانة المدرسة ومقدار وقفها واهتمام أولي الأمر بها من جهة، وتبعاً لما يوقفه واقفها من كتب خاصة به سيما وإن كان الواقف من العلماء والفضلاء مثل القاضي الفاضل وغيره⁽³⁾.

1- تعتبر هذه المكتبة من أضخم المكتبات التي أنشئت بمصر، أنشئها الفاطميون وجمعوا فيها كتب من كافة أصناف العلم، ونقلوا إليها أعدادا غفيرة من الكتب الموجودة في خزائن القصور الفاطمية من سائر العلوم. وقسمت المكتبة إلى أقسام: قسم للفقه، وقسم لقرآن الكريم، وقسم لأصحاب النحو واللغة، وقسم آخر للأطباء، وقد أباح الحاكم بأمر الله المكتبة لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها، فمنهم من كان يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم وكل لديه حاجته من الحبر والمحابير والورق والأقلام. صادر صلاح الدين الأيوبي كتب هذه المكتبة فبعضها بيعت وبعضها حرق. (سيد حسب الله و محمد جلال غندور، تاريخ الكتب والمكتبات عبر الحضارات الإنسانية، دار المريخ للنشر، الرياض 1996م، ص 145-146)

2- ابن دقماق، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، ج4، ص93؛ السيد النشار، تاريخ المكتبات في مصر "العصر المملوكي"، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993م، ص70-72؛ شعبان خليفة، الكتب والمكتبات في العصور الوسطى "الشرق المسلم، الشرق الأقصى"، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1997م، ص326.

3- حسن شمساني، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983م، ص47-48.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

د- بيت الصلاة:

كان للمدرسة الإسلامية وظيفتان متلازمتان هما الدراسة والصلاة بحيث لا تخلو مدرسة إسلامية من بيت للصلاة ، وقد كان جدار القبلة هو العامل الرئيس في تخطيط المدارس جميعها و حدودها الداخلية تنتظم في مستطيل أو مربع وبذلك فإنه يوجد في هذه المدارس بيت للصلاة وأن هذا البيت يتصدر بناؤها وأنه أكثر قاعاتها أهمية واتساعاً⁽¹⁾.

هـ- الحمامات:

ألحق مؤسسي المدارس في العصر الأيوبي حمامات بمدارسهم من أجل أن يستحم بها المقيمون في المدرسة كمدرسة منازل العز والمدرسة الناصرية الثانية وكذلك المدارس التي شهدها ابن جبير في الإسكندرية إذ قال: " واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئین حتى أمر بتخصيص حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك " ⁽²⁾ والأمر نفسه ينطبق على مدارس حلب.

و- المارستان:

كما اهتم مؤسسو المدارس الأيوبية بالطلبة والمدرسين من الناحية الصحية فأنشأوا المارستانات وألحقوها بالمدارس ، وقد ذكر ابن جبير عن المارستانات التي ألحقت بالمدارس " ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم " ⁽³⁾.

أخيرا يمكن القول إن المدارس في مدينتي حلب والقاهرة كانت متشابهة في المنشآت الرئيسة أي وجود بيت للصلاة في كل مدرسة ومساكن للطلبة وقاعات تدريس وغيرها من المنشآت الأخرى، بالإضافة إلى التشابه في التنظيمات الإدارية داخل المدرسة مثل المدرسين والمعبدین وكذلك الموظفين الآخرين وهذا يعود إلى أن هذه المدارس كانت في عصر واحد

1- محمد أبو غنيمه، تطور التعليم، ص62 ؛ هالة عبد الحميد السيد جاد، نظامية بغداد، ص76.

2- الرحلة ، ص15.

3- الرحلة ، ص15.

المدارس الأيوبية في حلب والقاهرة و آثارها السياسية والحضارية

وحكام من أسرة واحدة هي الأسرة الأيوبية وكذلك كثرة الأوقاف على المدارس في كلا المدينتين . الأمر الذي يجعل من الصعب رصد الاختلاف في التنظيمات الإدارية والمنشآت الداخلية المكونة للمدرسة في حلب والقاهرة وهذا ما أشرنا إليه في البداية . المهم أن هذه المدارس كانت تخضع لنظام دقيق ومنظم وكل ذلك كان يحدد في شروط الواقف أو المنشأ، من حيث عدد الطلاب والمدرسين والمعيدین فيها. وكل ذلك أعطى للمدارس الأيوبية قيمة علمية كبيرة وأصبحت الحواضر الأيوبية قبلة العلم والعلماء من كل أنحاء العالم الإسلامي.